الاتجاه الرمزي والإشاري عند المفسرين الأندلسيين

د. عمار ربيح
أستاذ محاضر (أ)
جامعة محمد خيضر – بسكرة.

لقد جمع القرآن الكريم العرب بعد شتات، ووحدهم بعد تمزق وهداهم بعد ضلال وقواهم بعد ضعف، وهذب طباعهم بعد فساد، فتلاقت قلوبهم وأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، ورسم لهم طريق السعادة في الدنيا والآخرة بما احتوى من أنظمة وتشريعات، وأوجد لهم شخصية بعدما كانوا يعيشون على هامش الحياة، ومكنهم من السيادة والريادة وقيادة العالمين.

واهتم العرب على مختلف العصور والدهور، وفي شتى البلاد والثغور، بدرس القرآن الكريم واستخراج جواهره وسبر أغواره، وبيان معجزاته، فكان أن أعتني الأندلسيون به عناية خاصة واحتفوا به احتفاء مميزا، فنشأت في بلادهم مدرسة للتفسير، قائمة بذاتها، لها أصولها ومناهجها وأعلامها، وسطعت شمس هذه المدرسة " تشع على بلادهم نورا، بداء من القرن الثالث الهجري ،الذي عرف ولادة أول عالم من أعلام المفسرين في الأندلس وهو بقيُّ بن مخلد (ت 276 هـ) (1) صاحب التفسير الذي يقع في سبعين جزءا كما ذكر أصحاب التراجم(2) .

ثم جاء بعده مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ) المفسر القارئ النحوي ثم تبعه أبو بكر محي الدين بن العربي (ت 543 هـ)الفقيه المالكي ، صاحب كتاب" أحكام القرآن" ، ثم كانت ولادة شيخ المفسرين الأندلسين عبد الحق بن عطية (ت 546 هـ) صاحب كتاب (المحرر الوجيز) ثم تبعه الإمام أحمد أبي بكر بن فرح القرطبي (ت 671 هـ) صاحب كتاب الجامع لأحكام القرآن ثم جاء ابن جزي الكلبي (ت 741 هـ) صاحب كتاب (التسهيل في علوم التنزيل)ثم كان خاتمهم أبو حيان الأندلسي (ت 745 هـ) صاحب (البحر المحيط)

وإذا كان علم التفسير قد عرف ولادته في القرن الثالث الهجري فقد استوى على عوده واشتد في القرن الخامس الهجري ، ثم اكتمل ونضج وبرزت مميزاته واتجاهاته في القرنين السابع والثامن الهجريين. ومن هذه الاتجاهات: الاتجاه السلفي أو التفسير بالأثر، والاتجاه اللغوي و الاتجاه الفقهي والاتجاه الاعتزالي والاتجاه الإشاري أو الرمزي، وهو معرض حديثنا.

فالتفسير الإشاري أو الرمزي هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية ورموز باطنية تظهر لأرباب السلوك كما يقول الألوسي (3) ، أو هو صرف ألفاظ القرآن عن ظواهرها إلى معان أخرى رمزية عن طريق الرمز و الإشارة، حيث لا تفهم من ظاهر اللفظ إنما تؤخذ من باطنه ، وقد يطلق على هذا النوع من التفسير القول بالباطن في تفسير القرآن الكريم (4) وينكر السيوطي تسمية هذا التأويل بالتفسير، قال في الإتقان: " وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير" (5) . ويستدل أصحاب هذا الاتجاه على وجوبه من القرآن الكريم، فعلى رأيهم فقد نعتِ الآياتُ على الكافرين عدم فهمهم للقرآن الكريم وعدم تدبره كقوله تعالى: " فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا : (النساء 78)، وقوله: " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها "(محمد 24) .و الحقيقة أن في هذا الاستدلال نظرًا ،فليس في الآيتين دعوة إلى تفسير إشاري أو فهم القرآن فهما إشاريا ، بل هو نهي عن عدم استجابتهم لله ورسوله بعد إقامة الحجة عليهم.

واستدلوا أيضا لهذا التفسير الإشاري بأحاديث لا تخلو من مقال، ومنها:

1- ما رواه الفريابي (شيخ البخاري) قال حدثنا سفيان عن يونس بن عبيد والحسن قال رسول الله صل الله عليه وسلم: " لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع ".

2- ما أخرجه الطبراني وأبو يعلى والبزار وغيرهم عن ابن مسعود موقوفا: " إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا له حد ولكل حد مطلع ".

3- ومن أقوى ما استدلوا به ما جاء عن عمر رضي الله عنه والعباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله أنهم فهموا من سورة النصر " إذا جاء نصر الله " أنها نعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وأشارت إلى دنو أجله وكان ذلك الفهم إشارة خفية أخذت من السورة، أما معناها الظاهر فلا يدل على ذلك، وبذلك لا يفهم الصحابة ممن كان في مجلس عمر (ض) ما فهمه هو.

وقد وقف العلماء من هذا الاتجاه في التفسير مواقف ثلاثة:

1- أنكره قوم وجعلوا القائلين به ملاحدة كفارا، قال السيوطي: " قال التفتازاني في شرحه، سميت الملاحدة باطنية لادعائهم إن النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية(6): ومن أمثلة ذلك قولهم في تفسير قوله تعالى: " تبت يدا أبي لهب" هما أبو بكر وعمر وفي قوله تعالى: " لئن اشركت ليحبطن عملك "(الزمر65) ، أي بين أبي بكر وعمر وبين علي على الخلافة، وفي وقوله تعالى: " إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة " (البقرة67) هي عائشة، وهؤلاء هو من غلاة الشيعة الباطنية وغير ذلك كثير، وقد أراد الباطنية من وراء هذا التفسير الرمزي إبطال الشرائع وهدم الدين من أساسه إلا أن العلماء فرقوا بين منهج الباطنية الذين ينكرون الظاهر ، والصوفية الذين لا ينكرونه، و يوضح الإمام الغزالي منهج الصوفية بقوله: " لا تظن من هذا الأنموذج و طريق ضرب الأمثال رخصة منى في رفع الظواهر واعتقادا في إبطالها، حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان،ولم يسمع الخطاب بقوله :" اخلع نعليك" حاشا لله فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين رأوا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، فالذي يجرد الظاهر حَشَوي والذي يجرد الباطن باطني والذي يجمع بينهما كامل"(7). وإذا كان الغزالي قد دافع عن مذهب الصوفية فإنه ليس كل كلامه مقبولا، لأن في أكثره شطحات ومعميات وألغاز غامضة ورموز محيرة، ومن ذلك قولهم(أي

الصوفية) أن المساجد في قوله تعالى: " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه " هي القلوب تمنع بالمعاصي، ونقل في قوله تعالى (فاخلع نعليك) إن باطن النعلين هما الكونان: الدنيا والآخرة

2- وأقره القائلون به و استدلوا على صحته بما أوردناه من أحاديثهم واستشهاداتهم.

3- أما الفريق الثالث من العلماء فقد قبل بعضه وأنكر بعضا، وهو يشترط لقبول هذا الاتجاه في التفسير توافر شرطين أو ثلاثة وإلا فهو باطل.

- عدم منافاة التفسير الإشاري لظاهر النظم وأن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على مقاصد العربية.
- أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض، فلا بد إذا من شهادة الله وبرهان الشرع.
- وأضافوا إلى هذين الشرطين شرطا ثالثا وهو عدم الادعاء بأن التفسير الإشاري هو وحده المراد دون الظاهر، بل لا بد من معرفة الظاهر أولا.

أما علماء الأندلس فسنقف عند رأي ثلاثة منهم وهم ابن عطية والقرطبي وأبو حيان. فأما ابن عطية فقد حارب في تفسيره المسمى " المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز"هذا اللون من التفسير الذي يمسخ آيات القرآن مسخا، واعتبره إلحادا في آيات الله تبارك وتعالى ينبغي التنبه إليه والحذر منه، قال: " وأثبتُ أقوالَ العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح- رضوان الله عليهم- كتاب الله تعالى من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز واللغز، وأهل القول بعلم الباطن وغيرهم فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد جاوزوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نبهت عليه " (8)ومن الأمثلة التي حارب بها ابن عطية التفسير الإشاري ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعدا

عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون" يقول ابن عطية : " والبعث من القبور مما يجوزه العقل وأثبته خبر الشريعة على لسان جميع النبيين ، وقال بعض الشيعة إن الإشارة بهذه الآية إنما هي لعلي بن أبي طالب(ض) و أن الله سيبعثه في الدنيا ، وهذا هو قول الرجعة ، وقولهم هذا باطل و افتراء على الله وبهتان من القول رده ابن عباس(ض) .وعند تفسير قوله تعالى:"أنزل من السماء ماءا فسالت أودية بقدرها" ينعى ابن عطية على (الغزالي) وأمثاله من الصوفية من أصحاب الرموز أنهم يتمسكون في تفسير القرآن بأقوال لا أوجه لها في العربية" (9).

أما القرطبي فقد رد التفسير الإشاري كما رده ابن عطية قبله، وأما موقفه من التفسير الصوفي فقد تمثل في جانبين:

الأول: القبول ، لأنه يوافق ظاهر النص، ومثاله قوله تعالى: " في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا " (سورة البقرة).

قال القرطبي: وقال أرباب المعاني، في قلوبهم مرض أي بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها (10) وعند تفسيره قوله تعالى: " وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن " (سورة يوسف100).

قال (ولم يقل من الجب استعمالا من الكرم لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفو عنهم بقوله لا تثريب عليكم.

قلت : وهذا هو الصلاح عند مشايخ الصوفية: ذكر الجفا في وقت الصفا جفا وهو قول صحيح دل عليه الكتاب.

الثاني: الرد والرفض وذلك لخروج هذا التفسير عن مقتضى ظاهر النص الكريم، ومن ذلك عند تفسيره قوله تعالى: " فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم" (البقرة 54)

يقول القرطبي: " قال أرباب الخواطر ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات، و الصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا، والقتل إماتة الحركات(11).

ومن ذلك أيضا عند تفسيره لقوله تعالى: " وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحي الموتى " (سورة البقرة 260).

قال القرطبي: (قال بعض أهل المعاني: إنما أراد ابراهيم من ربه كيف يحي القلوب وهذا فاسد مردود لما تعقبه من بيان)(12).

أما أبو حيان فقد حدد موقفه وأوضحه من التفسير الصوفي والاشاري وذلك في مقدمة تفسيره- البحر المحيط- فقبل التفسير ووافقه التفسير الصوفي بشرط مناسبته لمدلول اللفظ القرآني وغير ذلك فهو مرفوض ومردود

أما التعبير الإشاري الباطني فقد رده أبو حيان ورفضه واعتبره هذيانا وافتراء على الله عز وجل وعلى رسوله وآل بيته، قال: " وربما الممت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبته لمدلول اللفظ، وتجنب كثيرا من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ القريبة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى وعلى علي كرم الله وجهه وعلى ذريته و سمّوه علم التأويل ...." (13)

ومن أمثلة ما قبله من التفسير الصوفي على قلتها وندرتها كما ذكر في مقدمته قوله عند تفسيره لقوله تعالى: " أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة " (البقرة 86) قال أرباب المعاني" إن الدنيا ما ذم من شهوات القلب والآخرة ما اتصل برضى الرب.(14)

وهو تفسير مقبول يتناسب مع الدلالة اللغوية للفظ القرآني.

وأما أمثلة إنكاره على الصوفية ، فحكمه على من اشتط منهم في التفسير بأنهم ضالون مضلون،/ إذا أنهم أخرجوا الأنبياء على مقامتهم وفضلوا الأولياء عليهم، فقد قال عند تفسيره لقوله تعالى: " وكلا فضلنا على العالمين" (سورة الأنعام)

فيه دلالة على أنّ الأنبياء أفضل من الأولياء ، خلافا لبعض من ينتمي إلى الصوف في زعمهم أن الولي أفضل من النبي، كمحمد بن عربي الحاتمي صاحب كتاب الفتوح المكية وعنقاء مغرب وغيرهما من كتب الضلال وفيه دلالة على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة لعموم العالمين، وهم الموجودون سوى الله تعالى.(15)

فهذه عينة من مواقف المفسرين من خلال الدراسة المنهجية وهو اتجاه سلبي رافض لهذا اللون من التفسير .

أما ما يتعلق بالتفسير الصوفي الذي يوافق الظاهر ولا يتناقض مع مدلول اللفظ في الآيات ويستقيم مع اللسان ولا يوجد ما يعارضه في الشريعة فهو مقبول وأما غيره فهو مردود ومرفوض.

الهوامـش و المراجـــع

1. مدرسة التفسير في الأندلس- مصطفى إبراهيم المشيني ، ص81.

2. الأعلام، الزركلي ج2 ص 33.

3. التفسير والمفسرون، الذهبي ج3 ص 18.

4. منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، عبد الوهاب فايد ، ص 186.

5. الاتقان في علوم القرآن، السيوطي ج2، ص 235.

6. منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، عبد الوهاب فايد ، ص 186

7. نفسه ص 188.

8. المحرر الوجيز، ابن عطية ج1 ص 31..

9. نفسه

10. الجامع للأحكام القرآن، القرطبي، ج1، ص 197.

11. نفسه، ج1، ص401.

12. نفسه ج1، ص 299.

13. البحر المحيط أبو حيان، ج1، ص 5.

14. نفسه ج1، ص 295.

15. نفسه ج4، ص 174.